بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم أستاذى الكبير

فضيلة الأستاذ الدكتور/ يحيى هاشم حسن فرغل

هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ بعنوان "تأثر اليهودية بالأديان الوثنية" هو في أصله رسالة حصل بها صاحبها على الدكتوراه من قسم العقيدة بإحدى كليات الأزهر الشريف.

ولن أسمح لنفسي بالحيلولة بين صاحب الرسالة وبين القارئ في تقديم الكتاب إليه، فهو ـ أي الكاتب ـ أجدر بذلك، وأقدر، فيما يكتبه من مقدمة لاحقة.

كذلك فلن أسمح لنفسي بالمصادرة على القارئ بإعطاء تقويم سابق للرسالة، وصاحبها، واحتفظ له بهذا الحق كاملاً.

لكني أستمسحه في أن أبدي رأيي في تواضع في شئ من منهج البحث ونتائجه في هذا الكتاب، ثم في شئ من جوانب شخصية الباحث.

أما أولاً فهذه الرسالة تقوم ـ في تقديري ـ على منهج علمي دقيق، حيث تتخذ لها "معيارًا" في بحر دراسات الأديان المتلاطم، في حين أن كثيرًا غيرها من الرسائل والبحوث التي تقتحم هذا الميدان لا تبين بصراحة عن وجه المعيار، أو تتخذ من المعايير ما لا يصلح، أو تفتقد المعيار أصلاً.

أما في هذه الرسالة ـ وفي حضن الأزهر الشريف الذي ظهرت على يديه ـ فالمعيار هو القرآن الكريم.

وكون القرآن الكريم معيارًا يعطي ميزة لا يمكن منافستها في مثل هذه الأبحاث، ذلك لأنه معيار من طبيعة الموضوع، أي من طبيعة الدين، بخلاف

أبحاث أخرى تتخذ المعيار من طبيعة الدراسات الاجتماعية، أو من طبيعة الدراسات التاريخية، أو من طبيعة الدراسات النفسية.. الخ.

وهذا يعتبر زيفًا أو فقرًا في البناء البحثي، في تلك الدوائر التي تقوم بمقارنة الأديان على هذا الأساس، هنا القرآن الكريم هو المعيار.

وهنا نكون قد لمسنا بأيدينا المعيار الموثق الوحيد، بين تلكم الأساطير التي نخوض فيها عندما ندرس تلك الأديان.

إذن فالقرآن الكريم هو العلم الخفاق الموثق علميًا، ونحن إذ نتمسك به ـ كمعيار لهذه الدراسات ـ فإننا لا نتمسك به من منطلق التدين فحسب، وإنما نتمسك به من منطلق المنهج العلمي في حد ذاته.

هذا عن شئ من منهج البحث.

فإذا أردنا أن نشير إلى شئ من نتائجه فنكتفي بأمور ثلاثة:

الأمر الأول: تؤكد لنا هذه الدراسة أن ما غرقت فيه الديانة اليهودية من تفاعل بيئي مع الأديان الوثنية الأخرى يظهر لنا خطأ ما درج عليه البعض من وصفها ـ حاليًا ـ بالديانة السماوية ـ فهي في تقديرنا واعتقادنا وفي نتائج بحث هذه الرسالة، ليست إلا ديانة وضعية، احتفظت بأثارة هنا وأثارة هناك من رسالة السماء لا يمكن تبينها إلا بهيمنة المعيار الصحيح، ألا وهو القرآن الكريم.

وإغفال هذه الحقيقة وسط التيار الثقافي العام لشعوبنا الإسلامية المعاصرة ليس إلا مؤامرة كبرى على العقيدة الإسلامية.

الأمر الثاني: تؤكد لنا هذه الدراسة أيضًا أن الوثنية ليست كما يشيع بعض المثقفين والكتاب بنت البدائية.

كلا، فالوثنية كانت عند نزول الرسالات السماوية على أنبياء بني إسرائيل، هي عقيدة أكثر الشعوب تحضرًا في ذلك الوقت، وما كان اقتباس كفار بني إسرائيل منها إلا جريًا وراء الاقتباس الحضاري!!.

إن الوثنية تعيش وتترعرع مع أكثر الشعوب تحضرًا، وإن لها لمداخل شديدة النفوذ والخطر، فهي يمكن أن تتغذى بالفلسفة، وترتوي بالفن، وتتقوى بالحضارة، ولا تعبأ بالعلم، وإن لها مظاهر بالغة الرسوخ في أشكال الثقافة القديمة والمعاصرة على السواء، الأمر الذي يجعل من التضليل القول بان الإنسانية تتقدم، وأن الوثنية تصبح ـ أو أصبحت ـ في ظل هذا التقدم تاريخًا غابراً.

كلا، الوثنية خطر يهدد أي عقيدة، وأي دين، وأي مجتمع، عندما يترك هذا المجتمع جوهر الدين الإلهي، الذي هو الاتباع الدقيق المحكم، المطلق، إلى "الابتداع" في الدين بأي شكل من الأشكال، وهذا أمر وارد باسم التقدم، عندئذ يكون للوثنية مداخل ومداخل.

الأمر الثالث: إن هذه الرسالة بينت لنا ـ وربما على وجه الإجمال ـ أن قضية الإسرائيليات في الفكر الإسلامي لا تقتصر خطورتها على كونها "إسرائيليات" أي نبتاً غريباً دخيلاً، ولكن خطورتها الأشد تأتي من كونها "حصان طروادة" أي غطاء ـ وإن يكن مهترئًا ـ للوثنية.

ومن هنا يجب علينا أن نعيد النظر في خطورة هذه الإسرائيليات، وأن نضع هذه الخطورة في موضعها الصحيح، إذ تصبح هذه الخطورة مضاعفة أضعافًا كثيرة.

فالإسرائيليات ليست إسرائيليات فحسب، وإنما هي نبت الوثنية الذي يتسلل إلينا.

الأمر الرابع: لهذه الرسالة صلة قوية في كشف أوهام بعض ما تنتظره إسرائيل وعملاؤها، من عملية التطبيع، فهم قد ظنوا أن عملية التطبيع تصل في نهاية الأمر إلى إزاحة الدراسات الإسلامية عن دورها فيما يسمونه "الدعاية المضادة".

وهذا وهم كبير، فالواقع أنه مادام هناك قرآن يقرأ ـ بله إن هناك أزهر ـ فإنه لا نجاح لعملية التطبيع في تزييف حقائق العلاقات الثقافية بين الطرفين.

قد يكون التطبيع عند البعض "مناورة"، وقد يكون عند آخرين "مرحلة"، وقد

يكون عند غيرهم "وسيلة لغرض محدد" ولكنه لن يكون قط فاعلاً جوهريًا في حقيقة الوضع الثقافي الأصيل.

وأخيراً، ومهما اختلفنا في تقويم هذه المبادئ، أو هذه النتائج.

فالذي نشهد به أننا أمام بحث علمي أصيل، مستوف لشروطه وأركانه، صادق في منهجه، هام في نتائجه، رائد في صدروه عن جامعته، قام به شاب من علماء الأزهر، رائد في كليته، شاب نفخر به، ونغبطه على ما اتسم به من صبر على البحث، وإخلاص في المسعى، وعمق في النظر، وصدق في التعبير، نتمنى له مواصلة المسير، ونرجو منه المزيد، ونتوقع منه بجهوده، وجهود صحبة نعرفها من أمثاله، خيرًا كثيرًا للبحث العلمي في الأزهر، وللجلاء العقدي في الساحة الإسلامية الكبرى.

ونترك المجال مفتوحًا للقارئ الكريم.

وبالله التوفيق

يحي هاشم حسن فرغل

العين في مايو ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن والاه.

أما بعد

فإن هذه المقدمة تدور حول موضوع الكتاب "تأثر اليهودية بالأديان الوثنية" من حيث بيان أهمية وخطورة دراسته، وجدَّة البحث فيه، ومنهج البحث المستخدم في معالجته، وضرورة اعتماد هذه المعالجة على المنهج القرآني، الذي يقوم على المنهج العلمي الصحيح، بجانب انطلاقه من الوحي السماوي الصادق، وانبثاقه من المصدر الإلهي الموثق، وبيان الضوابط التي ينبغي مراعاتها عند استخدام هذا المنهج، بعد الإشارة إلى المخاطر والمفاسد التي ترتبت على معالجة مثل هذه الموضوعات، باتباع المنهج الأوروبي أو الغربي في دراسة ومقارنة الأديان.

خطورة الموضوع وجدته:

لعل هذا الموضوع لم يعالج من قبل ـ حسب علمي ـ بطريقة شاملة من وجهة النظر الإسلامية.

ذلك أنه على الرغم من أن القرآن الكريم هو أول من تَحدث عن تحريف اليهود للتوراة السماوية المنزلة على سيدنا موسى عليه السلام، وبين كفرهم وانحرافهم، وكشف عن فسادهم وإفسادهم وحكى لنا عن إشراكهم وتقولهم على الله سبحانه، وتطاولهم على ذاته العلية في كثير من آياته الكريمة.

ومن هذه الآيات قوله سبحانه:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1]

ففي هذه الآية الكريمة بين الله سبحانه أن اليهود تقولوا على الله سبحانه بان ادعوا بنوة عزيز له فقالوا (عزيز ابن الله) وأن هذا القول قد صدر منهم، وليس منقولًا عنهم، ومن ثم يقول تعالى (ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ) فأفاد هذا التعبير القرآني أن اليهود لم يخفوا هذا القول ولم يذكروه على سبيل الرمز والتعريض، وإنما صرحوا به وذكروه بألسنتهم، وأنهم دعوا الخلق إلى هذا القول حتى وقع في الأفواه والألسنة، وأفاد أيضًا أن قولهم هذا لا يعضده برهان ولا حقيقة له في عالم الواقع، وإنما هو مجرد لفظ فارغ، وقول بالأفواه ليس وراءه موضوع ولا حقيقة[2].

وبينت الآية الكريمة أيضًا أن اليهود في قولهم (عزيز ابن الله) يضاهئون ـ أي يشابهون ـ قول الذين كفروا من قبل.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن المفسرين المسلمين، وكثيراً من علماء الإسلام فهموا أن المقصود بالذين كفروا ـ في الآية ـ هم مشركو مكة على وجه الخصوص، وخاصة في زعمهم أن الملائكة بنات الله[3].

ولعلهم كانوا معذورين في ذلك، حيث لم يكن علم الآثار قد وجد بعد، وكشف لنا ضمن كشوفاته العلمية الحديثة، عن أديان وثنية قديمة عاصرها اليهود، واختلطوا بأصحابها، وتأثروا بهم في كثير من المجالات.

---

(١) التوبة: ٣٠.

(٢) راجع التفسير الكبير للإمام الرازي جـ١٦ صـ٣٧ دار الفكر.
سيد قطب: في ظلال القرآن جـ١٠ ص ١٦٤٠ دار الشروق ١٩٨٧/ ١٤٠٧هـ.

(٣) راجع تفسير الطبري جـ١٠ مجلد ٦ صـ ٨٠ دار المعرفة بيروت ١٤٠٧/ ١٩٨٧م، تفسير النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ١٠ص ٧٠ تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٤٨ دار التراث بالقاهرة تفسير الرازي جـ١٦ صـ٣٧.

ومن هذه الأديان الوثنية القديمة: أديان بلاد الرافدين، وأديان بلاد سورية، وأديان مصر واليونان والرومان والفرس وغيرها.

وعليه فإن المفسرين القدامى وغيرهم من علماء المسلمين لم يتعرضوا لبحث تأثر الديانة اليهودية بهذه الأديان الوثنية القديمة، حيث إن هذه الأديان لم يكن قد أميط عنها اللثام بعد.

المنهج الغربي في دراسة الأديان والمفاسد المرتبة عليه:

وحينما جاء الغربيون، وأخذوا يقارنون بين الأديان، وتوسعوا في دراسة الأديان القديمة والمعاصرة، بحثوا ضمن ما بحثوا تأثر اليهودية بالأديان الوثنية القديمة، وتوصلوا إلى نتائج مذهلة، وكشفت هذه النتائج عن جانب جديد من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم.

إلا أن معالجتهم لهذا الموضوع تمت دون أن يكون لديهم معيار صحيح وميزان ثابت في الحكم على ما هو من الدين الصحيح، والوحي السماوي، ويفرقوا بينه وبين ما هو من الوثنيات.

بالإضافة إلى أنهم طبقوا نظرية التطور في دراسة الأديان، فذكروا أن العقيدة الإلهية بدأت بالتعدد، ثم تطورت إلى الثنائية وارتقت أخيراً إلى التوحيد، وأن الإنسان قد خطا خطوات عظيمة، وجاهد جهاداً مريرًا في سبيل التخلص من مرحلة التعدد حتى وصل إلى مرحلة التوحيد.

وذكروا أن التطور كان هو القانون الذي يحكم مسيرة الأديان سواء في تعددها أو في تعدد الأنبياء.

فيما يتعلق بالمنهج الذي سلكه الغربيون في دراستهم لنشأة الدين ومعرفة ما كان عليه الإنسان الأول فإنهم سلكوا منهجًا خاصًا يتمثل في التنقيب عن أديان الأمم القديمة، أو أديان الأمم المعاصرة غير المتحضرة، واعتبروا أن أقدم مظهر معروف من مظاهر التفكير الديني الذي انتهوا إليه، هو صورة مطابقة لما كان عليه الإنسان الأول.

وقد انطوى استخدام هذا المنهج على خطأ مزدوج في الغاية والوسيلة معًا.

أما من حيث الغاية التي يهدف إليها البحث، وهي تحديد الأصل الأصيل للعقيدة، والمظهر الذي ظهرت به في أول الأزمنة بإطلاق فإن الخطأ يكمن في أن العلم قد اعتبر هذه المنطقة "البدائية المحضة" شقة حراماً حظرها على نفسه، وأعلن في صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله، فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف، وتستر بثوب مستعار، وكل حكم يصدر تحت هذا الاسم يكون صادرًا عن قاض معزول، فاقدًا للركن الأول من سلطته الشرعية[1].

وأما من حيث الخطأ في الوسيلة فإن الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية، مبنى على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التي وصل إليها البحث، وأنها لم تمر بها أدوار متقلبة، وهو افتراض لم يقم عليه دليل، بل الذي أثبته التاريخ، واتفق عليه علماء الآثار، هو أن فترات الركود والتقهقر التي سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة، وأن هذه المدنيات قامت بدورها على أنقاض مدنيات بائدة، في أدوار تتعاقب على البشرية، كتعاقب الفصول السنوية على الطبيعة، بحيث يتعسر الحكم بصفة قاطعة بأيها بدأت دورة الزمان.

فكذلك يمكن أن نقول في شأن العقائد الدينية، إن الخرافات القديمة يمكن أن تكون بداية ديانات، كما يمكن أن تكون نتيجة تحلل وتحريف لديانة صحيحة سابقة مزقت أهلها الحروب، أو أفسدتهم الآفات الاجتماعية، فقلت عنايتهم بأصول دينهم وشاعت بينهم روايات توارثوها حتى أصبحت سننا مقدسة[2].

وفيما يتعلق باعتماد الغربيين على نظرية التطور في دراستهم للأديان فإن ذلك يمثل خطرًا شديدًا على العقيدة من طرفين: طرف البداية وطرف النهاية معا.

فمن حيث طرف البداية فإن النظرية تقتضي أن يكون سيدنا آدم عليه السلام في

---

(١) راجع العلامة الدكتور/ محمد عبد الله دراز: الدين صـ ١٠٦-١٠٨، مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

(٢) راجع المصدر السابق صـ١٠٨ ـ ١٠٩.

درجة منحطة من التفكير والتدين، بينما هو الذي يتحدى القرآن بعلمه علم الملائكة، وهو الذي قام بين يدي الله يأخذ العلم منه كما ورد في أول سورة البقرة[1].

وهذا مناقض تمامًا لما تقتضيه نظرية التطور.

ومن حيث طرف النهاية فإنها تقتضي انفتاح المستقبل أمام رسالات جديدة، لأن الباب مفتوح دائمًا لنضج إنساني جديد، وتقدم جديد، يقتضي عقيدة جديدة... وهكذا.

وهذا مناقض تمامًا لما تقتضيه العقيدة الإسلامية.

إذن فنظرية التطور مرفوضة تمامًا من الناحية الإسلامية كتفسير لتعدد الأنبياء[2].

أما التفسير الصحيح لهذا التعدد ـ كما بينه أستاذنا الدكتور يحي هاشم ـ فإنه يدور وجودًا وعدمًا مع بقاء الدين الحق بين أيدي الناس واندثاره من بين أيديهم.

فالظروف المكانية والزمانية ـ مع اختفاء وسائل الاتصال والحفظ ـ كان لها في الماضي أثر في اختفاء الدين الحق ـ الإسلام ـ الذي يأتي به نبي من الأنبياء[3].

فالبشرية بدأت طريقها مهتدية مؤمنة موحدة، ثم أخذت تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة ـ بفعل العوامل المتشابكة المعقدة في تركيب الإنسان ذاته، وفي العوالم والعناصر التي يتعامل معها، وهنا يأتيها رسول جديد بذات الحقيقة التي كانت عليها قبل أن تضل وتشرك، هذه الحقيقة هي حقيقة التوحيد التي يقوم عليها دين الله كله، وتعاقب بها الرسل جميعًا على مدار التاريخ.

---

(١) يقول تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلآئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣١ ـ ٣٣).

(٢) راجع أستاذنا الدكتور يحي هاشم: الفكر الإسلامي في مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة صـ ٢٧٧ ـ ٢٧٨ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

راجع أيضاً كتابه "الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة صـ ٦٢-٦٤ دار المعارف بمصر ١٩٨٤م.

(٣) راجع الفكر الإسلامي في مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة صـ ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

وفي ضوء هذا يتبين مدى مفارقة منهج "الأديان المقارنة" الذي اعتمده الغربيون مع المنهج القرآني، يتبين أنه لم يكن هناك تدرج ولا "تطور" في مفهوم العقيدة الأساسي، الذي جاءت به الرسل كلها من عند الله، وأن الذين يتحدثون عن "تطور" المعتقدات وتدرجها، ويدمجون العقيدة الربانية في هذا التدرج و"التطور" يقولون غير ما يقوله القرآن الكريم.

فقد أخبرنا سبحانه أن الرسل جاءوا ـ رسولًا بعد رسول ـ بالتوحيد الخالص، وبربوبية رب العالمين، وبالحساب في يوم الدين، ولكن الانحرافات في خط الاعتقاد، مع الجاهليات الطارئة بعد كل رسالة، تمثلت في صور شتى من المعتقدات الجاهلية هي هذه التي يدرسها "علماء الأديان" ثم يزعمون أنها الخط الصاعد في تدرج الديانات وتطورها[1].

هذا وقد تأثر بمنهج الأوربيين في دراستهم للأديان عدد كبير من الأساتذة والباحثين المسلمين وبخاصة المشتغلين منهم بالدراسات التاريخية للحضارات والديانات القديمة، فقد تبنوا التطور وطبقوها على دراساتهم، واستعانوا بها في استنتاجاتهم[2].

بل إن الأستاذ عباس محمود العقاد ـ وهو من هو في كتاباته ومؤلفاته الإسلامية، وجهوده في الدفاع عن حقائق الإسلام، ومواجهه أباطيل خصومه، جهود بارزة ومشكورة[3] ـ يذكر في كتابه "الله" أن الإنسان ترقي في العقائد كما ترقي في العلوم والصناعات، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقي من أوائل الأديان والعبادات، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخري.

---

(١) راجع سيد قطب: في ظلال القرآن جـ ٨ صـ ١٣٠٤ ـ ١٣٠٥.

(٢) راجع الدراسات التي قام بها عدد كبير من أساتذة الجامعات في مختلف التخصصات والذين عرضوا لدراسة الأديان القديمة والمعاصرة، وتأثروا فيها بالمذهب التطور في نشأة الدين.

(٣) راجع البحث الذى قدمته إلى المؤتمر الدولى السادس للفلسفة الإسلامية ـ كلية دار العلوم جامعة القاهرة بعنوان "دور العقاد فى الدفاع عن الإسلام وإظهار حقائقه" وقد تم نشر البحث بكتاب المؤتمر.

ويذكر العقاد أيضاً أنه ينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخري[1]

ومن الواضح أن العقاد يري أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم، ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية، وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمني مطرد على الإجمال.

يدل على ذلك ما نقله عن علماء المقابلة بين الأديان حيث يذكر أنهم يعرفون ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب: وهي دور التعدد، ودور التمييز والترجيح، ودور الوحدانية[2].

ويدل على ذلك أيضا ما قاله بالحرف الواحد في مقدمة كتابه المذكور حيث يقول "موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية منذ اتخذ الإنسان ربا إلى أن عرف الله الأحد، واهتدى إلى نزاهة التوحيد"[3].

ومن خلال كلام العقاد وغيره من الذين يرون تطور العقائد يتبين لنا أنهم بنوا كلامهم على افتراض لم يقم عليه دليل، وهو قياس الملكات والأحاسيس الروحية، على القوى البدنية والمكتسبات العقلية والتجريبية.

فقياس الأديان على الفنون والصناعات إنما هو محاولة للجمع بين أمرين لا تؤلف بينهما حقيقة نوعية مشتركة، بل على العكس تتباين طبائعهما ووسائلهما، فبينما حقائق العلوم ثروة واسعة ترحل النفس في طلبها واكتسابها، فإن حقيقة الدين توجد عناصرها قارة بين الجوانح، ولا يتوقف إدراكها على إدراكات حقائق الكون ودقائقة الجزئية، ولا يعد أشق منها كما يذكر العقاد، بل إنه يتقدمها ويمهد لها[4].

---

(١) راجع كتابه "الله": كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية ص ٥، دار المعارف بمصر ١٩٤٧م.
(٢)المصدر السابق ص ٢١.
(٣) راجع د/ محمد عبد الله دراز الدين صـ ١١٠ ـ ١١١.
(٤) راجع في ظلال القرآن جـ١٢ صـ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ جـ٢ ص٢١٦.

وقد بين الدكتور محمد عبد الله دراز بعد دراسة مستفيضة ونقد موضوعي للمذهب التطوري في دراسة الدين، أن وسائل العلوم قد عجزت عن أن تقدم لنا بيانًا شافيًا يطمئن إليه القلب عن ديانة الإنسان الأول، وأنها عاجزة وحدها عن أن تصل بنا من طريق يقيني إلى نقطة البدء الحقيقي للدين.

وانتهى إلى أن الحل النهائي لهذه المسألة إنما يكون عن طريق الوحي، لأنها داخلة في منطقة الغيب التي هي موضوع الإيمان، وليست من شأن العلوم الاستقرائية ولا العلوم الاستنتاجية[1].

وليس المجال هنا للرد على المذهب التطوري في نشأة الدين وإنما سنفرد له بحثًا مستقلًا، ويكفينا هنا بعد الذي تبين أن نؤكد على تلك الحقيقة.. حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي حقيقة التوحيد، وأن هذه الحقيقة تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم "علماء الأديان المقارنة" وغيرهم من التطوريين الذي يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورًا متأخرًا من أطوار العقيدة، سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة.. ومن تأليه الشموس والكواكب.. إلى آخر ما تخبط فيه هذه "البحوث" التي تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة، يهدف إلى تحطيم قاعدة أن الدين السماوي والوحي الإلهي والرسالات من عند الله، وإثبات أن الأديان من صنع البشر، وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان![2].

اختيار الموضوع وخطة البحث:

وحينما أقدمت على تسجيل هذا الموضوع، راعني أنه لم يعالج في الدراسات الجامعية بطريقة شاملة، ومن وجهة النظر الإسلامية:

ففي جامعة الأزهر لم أجد من تطرق إليه، وفي الجامعات الأخرى بالرغم من أن عددًا من الباحثين قد أشاروا إليه، وتحدثوا فيه، إلا أنهم لم يبحثوه كموضوع

---

(١) الدين صـ١٠٤ ـ ١١٣.

(٢) راجع في ظلال القرآن جـ١٢ صـ١٨٨٢.

مستقل، ولم يدرسوه دراسة شاملة مستفيضة، بالإضافة إلى أن معالجتهم له تمت بعيداً عن أمان التصور الإسلامي، فأغفلوا هيمنة القرآن الكريم، ولم يرجعوا إلى ميزان الإسلام في الحكم على ما يعرض لهم من أمور.

ومن ثم فقد رأيت أن الدراسات الجامعية في أمسِّ الحاجة إلى بحث هذا الموضوع، وخاصة أن في بحثه خروجًا عن الموضوعات التقليدية المكررة التي تبحث في مقارنة الأديان.

فاستخرت الله سبحانه، وتوكلت عليه في التقدم بهذا الموضوع إلى قسم العقيدة والفلسفة لنيل درجة العالمية (الدكتوراه).

ويتضمن التخطيط الذي سرت عليه في كتابة هذا البحث خطة بموجبها يحتوي الكتاب على مقدمة ومدخل وثلاثة أبواب وخاتمة.

المدخل ويتضمن ثلاثة مباحث:

١- التصوير القرآني لديانة بني إسرائيل.

٢- مصادر اليهود.

٣- تحديد أصول التسميات: عبراني، إسرائيلي، يهودي والمراد بالديانة اليهودية.

الباب الأول: (اليهود واتصالهم بالأديان الوثنية القديمة).

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: اليهود في التاريخ منذ عصر آباء الأولين حتى عصر المكابيين.

الفصل الثاني: الأديان الوثنية المعاصرة لليهود في تاريخهم القديم.

الفصل الثالث: قنوات الاتصال التاريخية بين اليهود وأصحاب الأديان الوثنية

الباب الثاني: (عوامل تأثر اليهودية بالأديان الوثنية)

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: فترات السبى والاضطهاد والاختلاط في حياة اليهود.

الفصل الثاني: فقدان اليهود للتوراة المنزلة على سيدنا موسى وتحريفهم لها وانتفاء قدسية العهد القديم.

الفصل الثالث: الاتجاه الوثني لدى بني إسرائيل.

الباب الثالث: (مظاهر تأثر اليهودية بالأديان الوثنية)

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مظاهر التأثر في تأليف الأسفار وتدوين الكتب.

الفصل الثاني: مظاهر التأثر في القصص الديني والأساطير.

الفصل الثالث: مظاهر التأثر في عقيدة الألوهية.

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث[1].

منهج البحث:

يقوم منهج البحث الذي استخدمته في معالجة هذا الموضوع على إتباع المنهج القرآني الذي يجمع بين قيامه على أساس منهج علمي معتمد من المناهج العلمية الصحيحة، وبين كونه هو المصدر الإلهي الموثق، والمرجع السماوي الصحيح، وتتجلى ملامح هذا المنهج في النقاط التالية:

أولاً: استخدمت المنهج التاريخي الوصفي في عرض تاريخ اليهود، ونقل أحوالهم، ووصف عقائدهم، حيث رجعت إلى المصدرين الرئيسين لهم وهما أسفار العهد القديم وأسفار التلمود، وقد اعتمدت على المصدر الأول بشكل خاص فى التعرف على تاريخ وأحوال اليهود، فتاريخ اليهود جزء من ديانتهم، ومن هنا تأتي أهميته، حيث اعتبروه تاريخًا مقدسًا، وتكونت ديانتهم عبر مراحل حياتهم التاريخية.

ثانيًا: ومن لوازم هذا المنهج أيضًا أنني رجعت في تفسير هذه النصوص وبيان ما تهدف إليه وما يفهم منها، إلى شراح العهد القديم، وهم إما من اليهود أو من النصارى الذين يصورون عقائد اليهود ويذكرون تقاليدهم أولاً ثم يستنبطون منها ما يروق لهم ويدعم عقائدهم النصرانية.

ثانياً: ومن لوازم هذا المنهج أيضًا أنني رجعت في تفسير هذه النصوص وبيان ما

---

(١) اشتملت المقدمة في الأصل على خطة تفصيلية ذكرت فيها المباحث المختلفة للفصول وذكرتها هنا باختصار نظرًا لطول المقدمة في الكتاب، ويكفي القارئ أن يرجع إلى فهرس الموضوعات.

تهدف إليه وما يفهم منها، إلى شراح العهد القديم، وهم إما من اليهود أو من النصارى الذي يصورون عقائد اليهود ويذكرون تقاليدهم أولاً ثم يستنبطون منها ما يروق لهم ويدعم عقائدهم النصرانية.

ثالثاً: وسوف يلاحظ القارئ أنني أكثرت من نقل النصوص من هذه الأسفار وخاصة في وصف انحرافات اليهود عن التوحيد، وجنوحهم إلى الوثنية، وكان الهدف من ذلك إدانتهم من خلال مصادرهم وإلزامهم بما أوردته نصوصهم في حقهم، فاستشهدت بهذه النصوص على فساد طبيعتهم، وشدة انحرافهم وتأثرهم بالوثنيين وانخراطهم في سلك الوثنية، وقد حرصت على نقل نصوصهم كاملة دون شرح أو اختصار، حتى لا أتهم بأني أتزيد عليهم، أو أتصيد لهم، أو أحرف عنهم.

رابعاً: اعتمدت في نقل هذه النصوص على عدة طبعات للكتاب "المقدس" مترجمة إلى اللغة العربية:

١- الكتاب المقدس: أي كتب العهد القديم والعهد الجديد طبعة البروتستانت التي أصدرتها دار الكتاب المقدس في العالم العربي بدون تاريخ.

٢- الكتاب المقدس: العهد العتيق والعهد الجديد: طبعة الأساقفة الكاثوليك منشورات دار المشرق توزيع المكتبة الشرقية بيروت ١٩٨٦م، وتحتوي هذه الطبعة على مقدمة لكل سفر.

٣- الكتاب المقدس: كتب الشريعة الخمسة، طبعة الآباء اليسوعيين منشورات دار المشرق بيروت بإشراف جمعيات الكتاب المقدس في المشرق ١٩٨٦، وتحتوي هذه الطبعة على مدخل إلى الكتاب المقدس، ومدخل إلى العهد القديم ومقدمة وشرح لكل سفر.

٤- التوراة السامرية (النص الكامل للتوراة السامرية باللغة العربية) ترجمة الكاهن السامري: أبو الحسن إسحاق الصوري، نشر دار الأنصار القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.

وقد اعتمدت بشكل رئيس على طبعة البروتستانت، وجعلتها هى الأصل نظرًا لاعتمادها على النسخة العبرية فى عدد الأسفار، وأقرب إلى التقاليد اليهودية من غيرها.

خامسًا: وبجانب استخدامي للمنهج التاريخي من جانبه الوصفي فإنني قد استخدمته أيضًا من جانبه الاستردادي النقدي، والنقد كما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي هو الخطوة الحقيقية في المنهج التاريخي، ويقوم هذا المنهج على نقد الوثائق والمصادر، وينقسم إلى نقد خارجي، ونقد باطن فالنقد الخارجي ينقسم إلى نقد الاستعادة أو نقد التصحيح ويقوم على أساس التحقق من صحة الوثائق، وإلى نقد المصدر لهذه الوثائق.

وأما النقد الباطن فإنه يتلخص في خطوتين: الأولى عملية التحليل للنص، والنقد الإيجابي لمعناه أي تفسيره، والخطوة الثانية هي عملية النقد السلبي للنزاهة والدقة[1].

وبناء على ذلك ـ ورغم ما ذكرته عن مفاسد المنهج الغربي في دراسة الأديان فإنني قد استخدمت المنهج النقدي للكتاب المقدس ويسمى النقد التاريخي والذي بدأت حركته في القرن السابع عشر، وحمل لواء النقد في هذا القرن ثلاثة:

سبينوزا، ريتشارد سيمون، جان استرويك[2].

حيث وجدت أنه من الممكن للباحث أن يستعين بكثير من مراجع وكتابات الغربيين، ويستشهد بأفكارهم وآرائهم في بيان تأثر اليهود بالأديان الوثنية، فيما لا يمس العقيدة الإسلامية بشكل خاص، ولا يتصادم مع التصور الإسلامي بشكل عام، وذلك باتخاذ القرآن الكريم هو المعيار الأصلي والمقياس الأساسي.

---

(١) راجع تفاصيل الحديث عن هذا المنهج في كتابه "مناهج البحث العلمي صـ ١٨٣ ـ ٢٢١ وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٧م.

(٢) راجع مقدمة د. حسن حنفي لكتاب سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة صـ١٨، وذكر أن النقد التاريخي يتمثل في حسم مشكلة الصحة التاريخية وتشتمل أولاً: إثبات صحة نسب النص إلى مؤلفه ويسمى حديثًا بنقد المصادر، وثانيًا إثبات تكامل النص من حيث المضمون ويسمى حديثًا "إعادة تكوين النص".

ومن هنا فإنني رجعت إلى كتابات كثير من غير المسلمين ـ يهودًا كانوا أو مسيحيين ـ سواء كان منها الكتب المعربة التي ترجمت إلى اللغة العربية من اللغات الأخرى، أو التي كتبت أصلًا باللغة العربية، وكلما وجدت في آرائهم قوة الاستدلال وبعدًا عن التحيز، وكلما وجدت في الاستشهاد بها أمانًا من التصادم مع الحق المبين كما جاء به الوحي الأمين.

وتأتي أهمية استخدام هذا المنهج وبتلك الضوابط في أنه يدخل ضمن قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ فيكون أقوى في الاستدلال وآكد في الاحتجاج.

سادساً: ومن هذا الباب أيضًا فإنني في بعض الأحيان استشهدت بنصوصهم الواردة في أسفارهم على بطلان عقائدهم وبيان تناقضهم، واختلافهم، وقد يكون النص المستشهد به والمستخدم في الاستدلال غير صحيح، ولا يقبل القول به، سواء كان ذلك عرضًا لواقعة من وقائعهم، أو وصفًا لحدث من أحداثهم، أو بيانًا لعقيدة من عقائدهم فكوني استشهد بهذه النصوص لا يعني الإيمان بصحتها والقول بقبولها وإنما هو من باب إلزامهم بما في مصادرهم، وإبراز ما تحتوي عليه هذه المصادر من تناقض وتضارب واضطراب.

سابعًا: ومما ينبغي التنبيه عليه أن استخدامي للمنهج النقدي الذي استخدمه الأوربيون لا يعني أنني قد اعتمدت عليه فقط وأغفلت المنهج العلمي النقدي الذي استخدمه علماء المسلمين في دراسة اليهودية والنصرانية، ولا يعني أيضًا صحة ما زعمه الدكتور/ حسن حنفي من أن النقد التاريخي للكتب المقدسة يعتبر أحد المناهج العلمية التي وضعتها الفلسفة الحديثة، كما يعتبر من أهم مكاسب الحضارة الأوربية بالنسبة لدراسة التوراة والإنجيل، حيث نتجت عن تأليه العقل في القرن السابع عشر، قرن اسبينوزا، واخضاع الطبيعة له[1].

فالمنهج النقدي للكتاب المقدس لا يرجع الفضل في حدوثه إلى الأوربيين وإنما يرجع الفضل فيه إلى القرآن الكريم والى مناقشات المسلمين في العصور الأولى.

---

(١) راجع مقدمة رسالة اللاهوت والسياسة صـ١٨.

ويكفي هنا أن نشير إلى ابن حزم المتوفي في عام ٤٥٦هـ الذي يعتبر كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" بما اشتمل عليه من نقد علمي للعهدين القديم والجديد أول دراسة نقدية لنصوص الكتاب المقدس تسبق بآماد طويلة تلك الدراسة التي ظهرت بوادرها في أوربا في القرن السابع عشر وازدهرت في القرن التاسع عشر.

وقد اعترف بذلك علماء الغرب أنفسهم، بل إن منهم من بيَّن تأثر اسبينوزا بابن حزم في نقده لليهودية وانتفاعه بمنهجه[١].

فقد كان للمسلمين أثر جليل في دراسة الأديان تميز بطابعين جديدين لم يسبق إليهما أحد: أحدهما: أن الحديث عن الأديان بعد أن كان في العصور السابقة مغمورًا ومدفوعًا في تيار البحوث النفسية أو الفلسفية أو الجدلية، أصبح في كتب المسلمين دراسة وصفية واقعية، شاملة لكافة الأديان المعروفة في عهدهم، فكان لهم فضل السبق في تدوينه علمًا مستقلًا قبل أن تعرفه أوربا الحديثة بعشرة قرون.

وثانيهما: أنهم في وصفهم للأديان المختلفة لم يعتمدوا على الأخيلة والظنون، ولا على العوائد والخزعبلات الشائعة في الطبقات الجاهلة، ولكنهم كانوا يستمدون أوصافهم لكل ديانة من مصادرها الموثوق بها ويستقونها من منابعها الأولى.

وبذلك فإن المسلمين سباقون في مجال دراسة الأديان ومقارنتها حيث اختطوه علمًا مستقلًا ثم اتخذوا له منهجًا علميًا سليما[٢].

ثامنًا: الاعتماد على القرآن الكريم، والرجوع إليه، واتخاذه المقياس الصحيح، والمعيار الثابت، والميزان الدقيق، باعتباره المصدر الإلهي الموثق، والكتاب السماوي الصحيح، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[٣].

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب وهو بعنوان: "فقدان اليهود للتوراة المنزلة وتحريفهم لها".

(٢) راجع الدكتور/ محمد عبد الله دراز: الدين صـ ٢١ ـ ٢٢.

(٣) المائدة ٤٨.

ومعنى قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي الكتاب الكامل الذي أكملنا به الدين، فكان هو الجدير بأن ينصرف إليه معنى الكتاب الإلهي عند الإطلاق، وهو القرآن المجيد، وهذه حكمة التعبير بالكتاب بعد التعبير عن كتاب موسى باسمه الخاص (التوراة) وعن كتاب عيسى باسمه الخاص (الإنجيل)[1].

وقوله ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله، أي أنزلناه متلبسًا بالحق مؤيدًا به مشتملًا عليه مقررًا له، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[2].

وقوله ﴿ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي مصدقاً لما تقدمه من جنس الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل، أي ناطقًا بتصديق كونها من عند الله، وأن الرسل الذين جاءوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم[3].

ويقول ابن كثير "مصدقًا لما بين يديه من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقًا عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله[4].

أما قوله تعالى ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ فإن "المهيمن" في اللغة بمعنى الأمين، أو المؤتمن، أو الشاهد، وهيمن على كذا أي صار رقيبًا عليه وحافظًا، فأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب[5].

وقد أورد المفسرون عدة معان لقوله تعالى ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ فروى عن ابن عباس أنه فسره بقوله" إن القرآن شاهد على التوراة والإنجيل، ومهيمن بمعنى

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار جـ٦ صـ ٤١٠ دار الفكر بيروت.
(٢) المصدر السابق، تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٦٥.
(٣) تفسير المنار جـ ٦ صـ٤١٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم جـ٢ صـ٦٥.
(٥) راجع القاموس المحيط صـ ١٦٠٠ مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة ١٩٩٣م، تفسير الطبري جـ٦ صـ١٧٢.

أمين ويحكم على ما كان قبله من الكتب" وكذلك ورد عن قتادة، وقال ابن جريج وآخرون: القرآن أمين على الكتب فيما إذا أخبرنا أهل الكتاب في كتابهم بأمر إن كان في القرآن فصدقوا وإلا كذبوا، وقال ابن جرير: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله فما وافقه منها فهو حق وما خالفه منها فهو باطل"[1].

وهذه الأقوال كلها ـ فيما يذكر ابن كثير ـ متقاربة المعنى فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، فقد جعل الله الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، وأشملها، وأعظمها، وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[2].

وإذا كان القرآن الكريم هو الرقيب أو الحارس والأمين على الكتب السماوية السابقة فإن ما تقتضيه تلك الرقابة أو الحراسة الأمينة عليها أن لا يكتفي الرقيب أو الحارس بتأييد ما فيها من حق وخير، وإنما عليه أن يحميها من الدخيل الذي أضيف إليها، وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التي أخفيت منها، فمهمة القرآن إذن أن ينفي عن هذه الكتب الزوائد والإضافات، وأن يبين ما كتمه أهل الكتاب وأخفوه يقول تعالى ﴿ **يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ** ﴾[3].

فعلاقة القرآن إذن بالكتب السماوية في صورتها الأولى علاقة تصديق وتأييد كلي، وأما علاقته بها بعد تحريفها فهي علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية، وتصحيح وتقويم لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها.

ومن أجل ذلك فقد بيَّن القرآن حقيقة حال هذه الكتب في أصل إنزالها وما كان

---

(١) راجع تفسير الطبري جـ٦ صـ١٧٢، تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٦٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم جـ٢ صـ٦٥.
(٣) المائدة: ١٥.

من شأن من خوطبوا بها من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقى منها وتأويله، والإعراض عن الحكم والعمل بها[1]، وكان النهي عن الرجوع إلى أهل الكتاب، والأخذ منهم، والتلقى عنهم، ومن هنا يقول ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه البخاري "يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله ـ أي أقربها نزولا إليكم من عند الله عز وجل كما قال ابن حجر ـ تقرءونه لم يشب ـ أي لم يخلط وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلّوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، يشير إلى قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[2].

وأورد البخاري في صحيحه أيضًا حديثًا مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم[3].

وجاء في مجمع الزوائد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نسخ كتابًا من التوراة بالعربية فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقرأ ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتغير فقال رجل من الأنصار: ويحك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل والله لو كان موسى بين أظهر كم ما حل له إلا أن يتبعني.

---

(١) راجع تفسير المنار جـ٦ صـ٤١١ د/ محمد عبد الله دراز الدين صـ١٨١.

(٢) البقرة: ٧٩ والحديث موقوف على ابن عباس رواه البخاري في كتاب التوحيد وكتاب الشهادات والحديث رقم ٢٦٨٥ راجع فتح الباري جـ٥ صـ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٣)صحيح البخاري: كتاب الاعتصام والسنة باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ" فتح الباري جـ١٣ صـ٣٣٣ حديث رقم ٧٣٦٢ طبعة محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر.

وفي رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب حين قرأ عمر وقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به[1].

وهكذا بطلت الثقة براوية أهل الكتاب، ولم يعودوا أهلاً للسؤال ولا للتصديق لأن المصدق لهم معرض لتصديق الباطل والمكذب لهم معرض لتكذيب الحق، إذ لا يتيسر لنا أن نميز فيما عندهم بين المحفوظ السالم من التحريف وبين غيره، فالاحتياط أن لا نصدقهم ولا نكذبهم، إلا إذا رأوا شيئًا يصدقه القرآن أو يكذبه، لأنه مهيمن على الكتب السابقة، وشهيد عليها، وشهادته حق، ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[2].

تاسعاً: واستخدامي لهذا المنهج جعلني لا أجاري الكثيرين من الغربيين في استنتاجاتهم، ولا أتابعهم في استنباطاتهم على وجه الإطلاق، وسوف يلاحظ القارئ ذلك في ثنايا البحث، وخاصة في الباب الثالث، حينما يجدني أعرض مثلا لمظاهر تأثر اليهودية بالأديان الوثنية في القصص الديني، وأقوم بعد ذلك بالمقارنة بينهما، وأبين ما نقله اليهود من الوثنيات والأساطير التي تتعارض مع الدين السماوي، وتتنافى مع عقيدة التوحيد، وذلك بالفصل بين هذه الإضافات وبين ما كان ثابتًا في التوراة المنزلة على سيدنا موسى عليه السلام.

وهكذا دواليك في كل القضايا والمسائل التي تعرضت لها، وبينت فيها مظاهر تأثر اليهودية بالأديان الوثنية.

عاشرًا: واستخدامي لهذا المنهج أيضًا جعلني لا أقع فيما وقع فيه مثلا الدكتور/ أحمد شلبي رغم سبقه في مجال مقارنة الأديان حيث جارى الغربيين في قضية اقتباس الشريعة اليهودية من قوانين "حمورابي" البابلية.

---

(١) هذا الحديث رواه أحمد وأبو يعلي والبزار عن جابر، راجع مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمي جـ١ صـ١٧٣ ـ ١٧٤ دار الكتاب العربي بيروت، وهو حديث حسن كما ذكر الشيخ الألباني وذكر له شواهد كثيرة، راجع ارواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل جـ٦ صـ٣٤ ـ ٣٨ المكتب الإسلامي بيروت.

(٢) راجع محمد رشيد رضا: تفسير المنار جـ٦ صـ٤١٢.

فقد ذكر أن أهم مصدر اعتمدت عليه أسفار العهد القديم هو تشريع حمورابي الذي يرجع تاريخه إلى نحو ١٩٠٠ ق. م، وأن كثيراً من العلماء ذهبوا إلى أن القوانين الإسرائيلية في معظمها مأخوذة مباشرة من تشريع حمورابي[١].

ومن الممكن قبول هذا الكلام، وإخضاعه للبحث والدراسة، وذلك بأن نعرض كل قضية من قضايا الشريعة اليهودية على المصدر السماوي الموثق وهو القرآن الكريم حتى يتبين لنا الحق من الباطل.

لكن الذي لا يقبل على الإطلاق، أن يذكر الدكتور/ أحمد شلبي أن أبرز ما اتضح في تشريع حمورابي، وتحدر إلى الفكر الإسرائيلي "قانون المشابهة" الذي يوجد بين الجريمة والعقوبة، ويلزم أن تكون العقوبة مضاعفة للجريمة وأن تكون مثلها بقدر الإمكان فالعضو الذي يحدث الضرر يلقى العقاب فكانت اليد التي تخطئ أو تسرق تعاقب بالقطع.. وإذا هجم رجل على آخر فأضر ببعض أعضائه كان العقاب في مثل الموضع المصاب.

ثم يعقب على ذلك بقوله "هذه نماذج من تشريع حمورابي ونجدها في العهد القديم بنفسها أو مع اختلاف يسير، مما يدل على أن تشريع حمورابي كان مصدرًا مهمًا من مصادر العهد القديم[٢].

وبالرجوع إلى نصوص الأسفار التي أشار إليها الدكتور تبين أنها تتفق مع ما ورد في القرآن الكريم، بل إن القرآن الكريم قد صرح بأن الله سبحانه قد كتبها عليهم في التوراة المنزلة.

يقول الله تعالى ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾[٣].

---

(١) اليهودية ٢٦٣ الطبعة الرابعة ١٩٧٤م مكتبة النهضة المصرية.

(٢) نصوص من تشريع حمورابي أوردها الدكتور في كتابه ثم قارن بينها وبين ما ورد في سفر الخروج ٢١ : ٢٣ ـ ٣٦، وما ورد في سفر التثنية ١٩ : ٢١ وسفر اللاويين ٢٤ : ١٧ ـ ٢٢ راجع المصدر السابق صـ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٣) المائدة: ٤٥.

ومن هنا تكون الحاجة ماسة إلى ضرورة معالجة مثل هذه الموضوعات حسب المنهج القرآني، الذي يعصمنا من الزلل، ويقينا من التخبط والاضطراب.

وبعد:

فإنه ليسرني ويشرفني أن أتقدم من أعماق قلبي بخالص الشكر وعظيم التقدير إلى أستاذي الكبير/ فضيلة الأستاذ الدكتور/ يحي هاشم حسن فرغل، فقد منَّ الله سبحانه عليَّ بفضله وكرمه بأن تم هذا البحث تحت عناية وإشراف فضيلته.

وكان لتشجيع فضيلته الدائم لي، وحدبه الدائب على، وكرمه المتواصل معي، أثر كبير في استمرار ومواصلة هذا البحث، وكان لتوجيهاته الرشيدة، ونصائحة السديدة، وعلمه الغزير، وخلقه النبيل، وصدره الفسيح، الفضل الأول في إخراج هذا البحث على صورته الراهنة.

وإني لأذكر بكل العرفان والتقدير رغبة فضيلته الصادقة المخلصة في أن يجنبني الكثير من المزالق التي يتعرض لها الباحث، وحرصه الدائم على تهيئة الفرصة كاملة لاستقلالي الفكري تحت رعايته، داخل الإطار الإسلامي، ودعمه لهذا الاستقلال، وتغذيته بالمنهج العلمي الصحيح.

وإني لأرجو الله سبحانه أن أكون قد وفقت بالدرجة التي تتناسب مع ما قدمه لي من معونة صادقة، وما بذله معي من الوقت والجهد.

كما أنه لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر وخالص التقدير أيضًا إلى أستاذيَّ الكريمين: فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز عبد الله عبيد، وفضيلة الأستاذ الدكتور/ رءوف شلبي عضوي لجنة المناقشة على ما قدماه لي من نصح وتوجيه وتقويم، فجزاهما الله عني وعن طلاب العلم خير الجزاء.

والحمد لله على ما أنعم به عليَّ أولًا وآخرًا، وأتضرع إليه سبحانه أن يتقبل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الرياض في ذي الحجة ١٤١٣هـ/ يونيو ١٩٩٣م

فتحي محمد الزغبي